(الفصل الثامن)

المقالة

المقالة جنس أدبي حديث عرفته الآداب الأوربية في أواخر القرن السادس عشر. ويُعد الكاتب الفرنسي مونتين (١٥٣٣ـ ١٥٩٢) والكاتب الانكليزي بيكون (١٥٦١ـ ١٦٢٦) رائدي المقالة الحديثة في الآداب الأوربية. وكان للصحافة دور كبير في نهضة وانتشار هذا الجنس الأدبي في العصر الحديث.

إن المقالة «قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تُكتب بطريقة عفوية سريعة، خالية من الكُلفة والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب»[1]

ومن خصائصها التي يمكن استنتاجها من هذا التعريف الطول المعتدل والتشويق وبروز الطابع الذاتي فيها، والطابع العفوي الذي يبعدها عن التكلف والمنهجية.

ظهرت المقالة في أدبنا الحديث في القرن التاسع عشر نتيجة لاتصالنا بالغرب واطلاعنا على آدابه حيث تشكل المقالة جنساً أدبياً مستقلاً ومُهما، يقف إلى جانب الأجناس الأدبية الأخرى، ونتيجة لانتشار الصحف والمجلات في الوطن العربي.

إن تاريخ المقالة في أدبنا الحديث يرتبط بتاريخ الصحافة، فالمقالة لم تظهر في

---

(1) فن المقالة: محمد يوسف نجم. ص ١٥.

أدبنا جنساً أدبياً مستقلاً شأنه في فرنسا وانكلترا ، بل نشأة في حضن الصحافة
أغراضها المختلفة وحملت إلى قرّائها آراء محرريها وكُتابها .

أما الأدب العربي القديم ، فقد عرف فناً أدبياً يشبه المقالة الحديثة
الرسائل ، ولا سيما الرسائل العلمية والإخوانية ، فالرسائل العلمية التي تتناول
واحداً بشيءٍ من الإيجاز ، ومن وجهة نظر كاتبها ، فيها بعض خصائص المقالة
في الأسلوب والموضوع ، مثل رسائل الجاحظ في العشق واللصوص والنخيل
الرسائل الإخوانية التي تدور على المسامرات والمناظرات والأوصاف . وكان من
أن تتطور هذه الرسائل وتكون بواكير المقالة العربية الحديثة ، لولا ما طرأ على
العربي خلال القرن الرابع الهجري والقرون التي تلت ، من ميل إلى الصنعة
والمحسنات والزخارف اللفظية التي أساءت أكبر إساءة إلى النثر العربي ، وأعاقت
وتطور موضوعاته وفنونه .

تاريخ المقالة العربية الحديثة وخصائصها :

ظهرت بواكير المقالة العربية الحديثة في مصر قبل غيرها من الأقطار العربية
لسبقها في النهضة وتأسيس الصحف والمجلات .

وعلى العموم مرّت المقالات التي شهدتها الصحف المصرية بأربعة أطوار
الطـور الأول : ويشمل مقالات الصحف الأولى وهي الصحف الرسمية
أصدرتها الدولة أو أعانت على اصدارها حتى قيام الثورة العربية . ولأشهر من كتب
في هذا الطور رفاعة الطهطاوي وعبد الله أبو السعود وسليم عنجوري ، وقد نشروا مقالات
في «الوقائع المصرية» و «وادي النيل» و «روضة الأخبار» و «مرآة الشرق» .

كانت المقالة في هذا الطور ، لكونها تُمثل المحاولات الأولى في هذا
الأدبي ، بدائية وفجّة فكان أسلوبها أقرب إلى أسلوب النثر في عصر تدهور
والأدب العربي من حيث الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية والزخارف المتكلفة
موضوعها الرئيس فيتمثل في الشؤون السياسية إلى جانب الشؤون الاجتماعية والتعليمية

الطور الثاني : وهو الطور الذي شهد صحفاً جديدة غير مرتبطة بالدولة ، أسس
معظمها المهاجرون السوريون مثل «الأهرام» و«مصر» وغيرها .

شهدت صحف هذا الطور مقالات كتاب ارتبط تاريخهم بتاريخ الكفاح الوطني
في مصر أمثال أديب أسحق وسليم النقاش وعبد الله نديم ومحمد عبده وابراهيم
المويلحي ومحمد عثمان جلال وعبد الرحمن الكواكبي وبشارة نقلا. وامتازت مقالاتهم
في هذا الطور - إلى حدٍ كبير - من قيود السجع في الأسلوب ، أما فيما يتعلق بالموضوع ، فقد
غلبت عليها الموضوعات الوطنية والاجتماعية المتأثرة بروح التحرر والإصلاح .

الطور الثالث : وهو الطور الذي شهد مقالات صحف المدرسة الصحفية الحديثة
التي أسستها الأحزاب السياسية التي شهدتها مصر في عهد الاحتلال مثل حزب الإصلاح
الذي أسسه الشيخ علي يوسف وأصدر جريدة «المؤيّد» والحزب الوطني الذي أنشأه
مصطفى كامل وأصدر جريدة «اللواء» وحزب الأمة الذي كوّنه لطفي السيد وأصدر
جريدة «الجريدة» . وأهم الكُتاب الذين حرروا هذه المقالات علي يوسف ومصطفى
كامل ولطفي السيد وعبد العزيز جاويش وولي الدين يكن ومحمد رشاد رضا وخليل
مطران .

لقد اتجهت مقالات هذا الطور اتجاهات مختلفة . منها ما هو سياسي بحت ومنها ما
هو علمي وتربوي . أما الأسلوب فقد تخلص كلياً من قيود الصنعة والسجع ، وأصبح حراً
بسيطاً يعنى أساساً بالأفكار والمعاني .

الطور الرابع : وهو الطور الذي بدأ مع قيام الحرب العالمية الأولى وما تلاها من
أحداث أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة المصرية ، وفي الشخصية المصرية ، وأهمها ثورة
1919. ولعلّ أهم الصحف التي ظهرت في هذا الطور وأثرت في تطور المقالة ، جريدة «
الدستور» و «السياسة» و «كوكب الشرق» و «المعري» وغيرها . واشهر من حرر فيها طه
حسين ومحمد حسين هيكل وابراهيم المازني وعباس محمود العقاد .

امتازت المقالة في هذا الطور بالتركيز والدقة العلمية والميل إلى بث وإشاعة الثقافة
العامة وأسلوبها هو الأسلوب الحديث الذي اشتهر به هؤلاء الكُتاب العمالقة الذين هم

أقطاب الأدب والفكر العربي الحديث .

وفي الوقت ذاته ، أصبح للمجلات ، ولا سيما المجلات الأدبية ، دور مهم في تطوير المقالة وتسيع آفاقها ، إذ شهدت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر مجلات عناية كبيرة بالمقالة مثل «المقتطف» حين تولى تحريرها فؤاد معروف، «الهلال» السياسة الأسبوعية» و «البلاغ الأسبوعي» و «الرسالة» لأحمد حسن الزيات الصادرة عام ١٩٣٣، و «الثقافة» و «الكاتب المصري» و «الكتاب» ..الخ .

لقد احتضنت هذه المجلات أنواع المقالة من ذاتية وموضوعية ، وخلقت طبقة الكُتاب الذين عنوا بفن المقالة وجعلوها الوسيلة الأولى لنقل أفكارهم وإذاعة آرائهم .

وفي لبنان نهضت المقالة نتيجة لظهور عدد كبير من الصحف الأهلية في الصحف التي حررها كُتاب يُعدّون رواد المقالة العربية في لبنان أمثال خليل الخوري وبطرس البستاني وسليم البستاني وابراهيم سركيس وعبد القادر القباني ولويس صابونجي وغيرهم . أما الطائفة الثانية من الكُتّاب فقد ظهروا بعد إعلان الدستور العثماني حيث تطورت الحركة الصحفية أمثال بشارة الخوري وجرجي شاهين عطية وفيلكس فارس وعبد الغني العريس . وامتازت هذه الطائفة بازدياد حظها من الثقافة والحرية ، لذا تطورت المقالة الصحفية بفضلهم تطوراً كبيراً .

وأما الطائفة الثالثة فبرزوا بعد الحرب العالمية الأولى في عهد الاحتلال الفرنسي مؤازر ومحايد ومعارض ، وأشهرهم جبران التويني وميشال زكور وعبد الله مشنوق وفاخوري وغيرهم .

أما في العراق فقد مرّت المقالة في تطورها بثلاث مراحل هي :

١- مرحلة العهد العثماني شهدت هذه المرحلة بعض الرسائل الساذجة والبعيدة عن الشؤون والمشكلات الحياتية المهمة ، واسلوبها هو الأسلوب المسجوع والحافل بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية . ولعلّ هذا يعود إلى عُزلة العراق عن العالم وتخلفه الثقافي وتأخر ظبور الصحافة فيه .

لكن الحال تتغير في أعقاب إعلان الدستور العثماني في ١٩٠٨ حيث

...ت فترة من الزمن وتنشأ صحف ومجلات متنوعة ، مِمّا يؤدي إلى تطور المقالة نحو ... الأسلوب ونبذ الأسلوب المتكلف والتعبير عن موضوعات سياسية واجتماعية ... لة في الدعوة إلى الحرية ووصف مساوئ الاستبداد والدعوة إلى مكارم ... أغلبية الناس مثل ... واستقلال العرب .

... اق ٢- مرحلة عهد الاحتلال البريطاني حيث كثُر كُتّاب المقالة نتيجة لتشجيع الانكليز ... للعمل في الصحف التي أنشأوها . امتازت المقالة في هذه المرحلة بالسهولة في ... ظ والوضوح في الأفكار ، ومن حيث الموضوع غلب عليها وصف العلاقات بين ... والأتراك والعلاقات بين العرب والانكليز ، والإشادة بالإنكليز بوصفهم منقذين ... من الظلم العثماني .

٣- عهد الحكم الوطني الذي يبدأ في عام ١٩٢١ حيث نزعت المقالة إلى مختلف ... ن السياسية والاجتماعية والثقافية وأهمها السعي إلى توعية الشعب وتوجيهه إلى ... لاستقلال والحرية والعمل . ولهذا مالت المقالة ، من حيث الأسلوب ، إلى السهولة ... ظ السلسة ليفهمها الجميع . ومن أهم كُتّاب المقالة في العراق في هذه المرحلة طه ... ومحمد مهدي البصير ومحمد رضا الشبيبي وفهمي المدرس وابراهيم صالح شكر ...

... وفيما يأتي دراسة لبعض أعلام المقالة العربية الحديثة .

(محمد عبده)

١٨٤٩ ــ ١٩٠٥

ولد محمد عبده في قرية على ضفاف الدلتا المصرية ، في عائلة تملك بعض
والمكانة الاجتماعية ، لذلك أستطاع أن يتعلم القراءة والكتابة على أيدي معلمين
لتعليمه في المنزل ، وحفظ على أيديهم القرآن الكريم وتعلم ركوب الخيل والفروسية
وعندما بلغ الثالثة عشر من العمر سافر إلى طنطا للدراسة في الجامع الأحمدي
مراكز الثقافة الدينية المهمة في مصر آنذاك ، لكنه لم يفد من ذلك شيئاً بسبب
التعليم ، رجع إلى قريته وتزوّج ، غير أن أباه طلب اليه أن يستأنف تعليمه ، فسافر
طنطا إلى أخوال أبيه حيث وجدّ بينهم شيخاً متصوفاً هو الشيخ درويش ، ذا أفق
واسع وفهم صحيح للدين ، فأخذ يستمع اليه ويتلقى منه التوجيه والإرشاد حتى
أستاذه الأول .

لقد أثرّ فيه هذا الشيخ تأثيراً كبيراً وجعل منه شخصية جديدة ترى وتفهم
بمنظار جديد: حتى صار يَحُس إحساساً عميقاً كأن عليه رسالة الحياة : أن يهدي
إلى الطريق المستقيم . قال محمد عبده في سيرته عن خاله هذا ، لم أجد إماماً يرشد
إلى ما وجهت اليه نفسي إلاّ ذاك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن
إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى اطلاق التوحيد ... وهو مفتاح سعادتي إن
لي سعادة في هذه الدنيا ، وهو الذي ردّ لي ما كان غاب من غريزتي وكشف لي
خفيّ عني مِمّا أودع في فطرتي ..."

عادّ محمد عبده إلى طنطا وبعدّ إتمام دروسه فيها التحق بالأزهر حيث أعجب
كان يُدرس الفلسفة والمنطق هو الشيخ حسن الطويل .

في عام ١٨٧١ زار مصر جمال الدين الأفغاني داعياً إلى نهضة الإسلام و
الاستعمار ، فالتف حوله محمد عبده وأعجب إعجاباً شديداً بأفكاره ، وأخذ

(مصطفى لطفي المنفلوطي)
١٨٧٦ ــ ١٩٢٤

ولد مصطفى لطفي المنفلوطي في بلدة منفلوط التابعة لمحافظة أسيوط سنة ١٨٧٦ لأسرة ليست غنية ، لكنها معروفة بالحسب والشرف . تلقى تعليمه في الكتاتيب ثم التحق بالأزهر ليتم تعليمه فيه ، فظلّ فيه عشر سنوات ، والتقى بالشيخ محمد عبده ، وهو يدرس تفسير القرآن وكتب عبد القاهر الجرجاني في البلاغة والأعجاز ، فاعجب به ولزم دروسه وانصرف عن الأزهر وعلومه وشيوخه .

مال المنفلوطي إلى قراءة الأدب ، فقرأ أبن المقفع والجاحظ وبديع الزمان والآمدي والباقلاني ودواوين الشعراء العباسيين وكتابات محمد عبده وآثار معاصريه المترجمة والمؤلفة ، حتى كوّن له ثقافة أدبية ممتازة وأسلوباً أدبياً عالياً .

وحين يموت محمد عبده ، يحزن المنفلوطي ويأسف أسفاً شديداً ويرجع إلى بلدته منفلوط ، وهناك يبدأ بتحرير المقالات ، ويبعثها إلى جريدة «المؤيد» للشيخ علي يوسف .

يعود بعدّ عامين إلى القاهرة ويتصل بسعد زغلول الذي يختاره محرراً للغة العربية في وزارة المعارف حين يتولى أمرها ، حتى لا تكون في منشورات الوزارة ورسائلها أخطاء لغوية ونحوية ، ثم يُنقل سعد زغلول إلى وزارة العدل ، فيُنقل المنفلوطي معه للعمل نفسه .

ولمّا تُمنح مصر الدستور ويكون لها برلمان ، يختاره سعد زغلول لسكرتارية البرلمان في عام ١٩٢٣، لكنه بعدّ فترة قصيرة يُلبي نداء ربه في ١٩٣٤، ويرثيه أحمد شوقي بقصيدة يقول فيها :

أختـرت يـوم الهـول يـوم وداع ونعـاك فـي عـصـف الـريـاح الناعي